شرح قصيدة ولادة لابن زيدون

ولادة صاحبة الحب العظيم الذي كنّه ابن زيدون لها في ثنايا شعره حتى استطاع شعره أن يكون غرة على وجه الزمان، وهو صاحب الكلمة القوية التي تقف المغرب كلها من أجل سماع بخر قصيدة له، ويُقال إنّ ولادة هي التي هربته من سجنه الذي حُكم عليه به، وما يأتي قصيدة ابن زيدون في حب ولادة مع شرحها:

- **أَضحى التَنائي بَديلاً مِن تَدانينا**
  وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا

في هذا البيت الشعري يستهل الشاعر كلامه في الحديث عن الحزن والألم والوجد الذي يُعانيه من جراء ذلك البعد القاسي والظالم الذي حكم في علاقتهما بعد أن كان الحب والاهتمام والجمال هو سيد الموقف، صار الآن الجفاء وقسوة الكلمة هو النائب الحقيقي عن العطف والحنان والتداني ما بين الشاعر ومحبوبته.

- **بِنتُم وَبِنّا فَما اِبتَلَّت جَوانِحُنا**
  مَآقينا شَوقاً إِلَيكُم وَلا جَفَّت

الآن يتكلم الشاعر عن حال ذلك الغياب وأثره على ابن زيدون فيُقال ها هي الحال قد آلت لهذا السوء فابتعدتم عنا وابتعدنا عنكم من دون أن يكون هناك أي صلة فلا قلوبنا استطاعت أن تبتل برؤيتكم بل بقيت جافة قاسية، ولا عيوننا جفت من الدموع وذلك لأنّ الإنسان لما يشتاق ويألم فإنّ عيونه تترجم ذلك الشوق بسكب الدموع وغيره.

- **نَكادُ حينَ تُناجيكُم ضَمائِرُنا**
  تَأَسّينا لَولا الأَسى يَقضي عَلَينا

يستمر الشاعر بوصف كلمات الحزن والألم التي تعتصر روح الشاعر وتعتصر قلبه وفؤاده فهو الآن بعيد منفي عن ذلك الحب وعن تلك المراة التي يعشقها وليس بوسعة إلا أن يقف حزينًا ضعيفًا متمنيًا على الله أن يخرجه من ذلك الضيق إلى أوسع طريق، ويكاد الحزن والأسى يقتل الإنسان قتلًا لولا تسليه بتلك الأيام الخوالي التي مرت ورغبته وشوقه لأن تعود ويعود ذلك الحب كما كان.

- **حالَت لِفَقدِكُمُ أَيّامُنا فَغَدَت**
  سوداً وَكانَت بِكُم بيضاً لَياليا

الآن يتكلم الشاعر ويعقد مقارنة واضحة المعالم ما بين حياته الأولى وهذه الحياة التي يعيشها حزينًا أليمًا بعد أن خلفت له ولادة ألوان الأم كلها تلك وألوان الحزن والفراق فصارت أيام نهاره المشرقة المضيئة سوداء قاتمة لأنّ السواد احتل نفسه وقلبه وروحه، وقبل ذلك كانت الليالي السوداء التي عاشها الشاعر بيضاء مضيئة بجمال رائع فتان.

- **إِذ جانِبُ العَيشِ طَلقٌ مِن تَأَلُّفِنا**
  وَمَربَعُ اللَهوِ صافٍ مِن تَصافينا

يعرج الشاعر الآن في كلامٍ له عن الماضي الذي عاشه مع المحبوبة والحياة الرائعة الفتانة التي كان يحوز عليها بعيدًا عن كل منغصات الحياة وكدرها، فكانت ولادة معه في حياة مضيئة مثل شمس الصباح فلا يوجد وقت سوى للمرح والحب والتحلي بأنواع الجمال، وكأنّ الأرض كلها صافية مشرقة لهما وحدهما، والأرض تصفو لكل عاشقين معًا.

- **لِيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السُرورِ فَما**
  كُنتُم لِأَرواحِنا إِلّا رَياحينا

الآن يتكلم الشاعر عن العهد الجميل ذاك حينما كان هو ومحبوبته يطلان مع بعضهما البعض على الحياة مثل طلل الشمس الجميلة على الدنيا ويتمنى أن تفي المرأة المحبوبة للذكريات الجميلة وتزورها وتسقيها وفي ذلك الطواف على الذكرى دليل واضح على حب الشاعر لها ورغبته بأن تُسقى تلك الذكريات وتعود الحياة بينهما كانت قبل ذلك.

- **نَأيَكُم عَنّا يُغَيِّرُنا لا تَحسَبوا**
  المُحِبّينا النَأيُ أَن طالَما غَيَّرَ

يعود الشاعر في هذا المقام للكلام عما ساد من القواعد بين الناس عن الحب والعشق فيقول لا تظني أيتها المرأة القوية والجميلة أن البعد عني أو بعدك عني سوف يغيرني وسوف أتخلى عن ذلك الحب الذي أفني عمري فيه، ولو رأيت من المحبين غيري ذلك الفعل -أي أن البعد ينسي- فإنّ هذا الأمر شأنهم وليس شأني.

- **وَاللهِ ما طَلَبَت أَهواؤُنا بَدَلاً**
  مِنكُم وَلا اِنصَرَفَت عَنكُم أَمانينا

يحاول الشاعر أن يعود ليؤكد نفس الفكرة للمحبوبة وكأنه يخسى أن تكون قد نسيته بعد ذلك الفراق أو تظن أنها نسيها، فيقول لها أيتها الشاعرة العظيمة المحبوبة إنّ حبي وقلبي لم يطلب غيرك من النساء أبدًا وحتى أمانينا لم تنصرف إلى غيركم على الإطلاق فأنت ما تزالين المرأة المتربعة على شغاف قلبي وروحي.

- **غادِ القَصرَ وَاسقِ بِهِ يا سارِيَ البَرقِ**
  الهَوى وَالوُدُّ يَسقينا صِرفَ مَن كانَ

الآن يُخاطب الشاعر الطبيعة الصامتة والبرق دائمًا يكون مصاحبًا للمطر فهو وكأنه يقسم عليه أن يمم ناحية القصر ويحاول أن يسقي أصحاب ذلك القصر من الحب والعشق والهويام الذي كان الشاعر يسقي به المرأة ويتمنى لو كان ذلك الماء الذي يستقي القصر به يحرك شيئًا من مشاعر تلك المرأة وقلبها الدافئ وهي التي كانت تسقي الشاعر ألوان الهوى وأصنافه.

- **وَيا نَسيمَ الصَبا بَلِّغ تَحِيَّتَنا**
  مَن لَو عَلى البُعدِ حَيّا كانَ يُحَيّينا

في الكلام في هذه القصيدة يتكلم الشاعر إلى نوع آخر من أنواع الطبيعة الصامتة وهو البرق حيث يقول: أن يا نسيم الصبا حاول أن توصل سلامنا لى تلك المحبوبة سيدة الروح والقلب والفؤاد ولو أنّها حيت ولو كان ذلك في بعدها وجفائها فإنّ تلك التحية هي لنا لا محالة.